التعريف والنقد

أوراق فارس الخوري

الكتاب الأول ١٨٧٧ ـ ١٩١٨ م

نسقه وحققه وعلق عليه كوليت الخوري

الطبعة الأولى ١٩٨٩ ـ دار طلاس بدمشق

الدكتور صالح الأشتر

كتابٌ من أنفس ماصدر عن دور النشر في سورية العربية خلال السنتين الأخيرتين ، ويضم صوراً من حياة رجل عظيم من رجال سورية الذين صنعوا تاريخها الحديث ، وفي هذه الصور أمشاجٌ من الذكريات تعرض لفترة الانتقال الخطيرة من الحكم العثماني إلى سقوط الخلافة العثمانية (١٨٧٧ ـ ١٩١٨ م)[1] ، والكتاب في أصوله أوراق خلّفها فارس الخوري لدى حفيدته الأدبية المعروفة (كوليت) ، فظلت أمانة مطوية لديها طوال ربع قرن قبل أن تحزم أمرها فتدفع بها إلى النشر ، متهيّبةً أن تُقدم بنفسها على تنسيق تلك الأوراق المتناثرة ، وتحقيق نصوصها والتعليق عليها ، وهي التي لم تسبق لها تجربة في ميدان التحقيق ، ومايتطلبه من جهد لاهث خلف المظانّ والمصادر ، لمراجعة النصوص وتقويمها ، ولكنها أحسنت في نهاية المطاف حين تغلّبت على ترددها ، وعكفت على تنسيق

[(١) في سنة ١٩١٨ م انتهت الهيمنة العثمانية على بلاد الشام .

أما الخلافة العثمانية فقد أعلن المجلس الوطني في تركيا في الثالث من آذار سنة ١٩٢٤ م إلغاءها ، وطَرْدَ الأسرة العثمانية من أراضي الجمهورية التركية ومصادرة أملاكها .

وغادر الخليفة العثماني عبد المجيد بن عبد العزيز آخر الخلفاء العثمانيين مدينة اصطنبول في الرابع من آذار سنة ١٩٢٤ م ، وتوفي في باريس في ٢٣ آب ١٩٤٤ م / المجلة] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تلك الأوراق وتحقيق نصوصها والتعليق عليها ، وصدر الجزء الأول ـ الكتاب الأول ـ وكل مافيه من جهد في التحقيق وأناقة في حسن الاخراج يشهد بأن الحفيدة الأدبية المحققة بذلت جهداً طيباً مشكوراً في ميدان تخطو فيه خطواتها الأولى ، وجاء رجاؤها في آخر صفحة من الكتاب (ص ٤٦٧) إلى كل من لديه ملاحظة أو تعليق أو نقد أن يبعث إليها بذلك ، دليلاً على وعي المحققة وإدراكها لخطر المهمة التي نهضت بها ، وشاهداً على تواضعها وحرصها على أن تؤدي الأمانة على خير وجهٍ في وديعة جدّها لديها ، فتذيع أوراقه في الناس بعد بذل أقصى الجهد في تنسيقها وتحقيقها والتعليق عليها .

☆ ☆ ☆

وأبادر إلى القول : إن ماأكتبه هنا ليس تعريفاً بالكتاب ولانقداً لما في حواشيه من تحقيقات وتعليقات ، وإنما هو عرض لبعض الملاحظات التي كتبتها عند قراءتي لهذا الكتاب القيّم ، استجابة لرجاء المحققة الفاضلة ، عسى أن يكون فيها مايفيدها عند تقديم طبعة ثانية ككتاب جدّها العظيم .

قرأتُ الكتاب بشغف واستمتاع ، ووقفت ملياً عند الرسائل المتبادلة بين فارس الخوري ومحمد كرد علي خلال العقد الأول من القرن العشرين ، وذكرتُ صلة الأخوة والود التي ظلت تربط بين هذين الرجلين الكبيرين طوال حياتهما ، فقد بقي محمد كرد علي إلى آخر حياته يعترف بدعم صديقه الخوري له وصموده إلى جانبه في تأسيس المجمع العلمي ، وحمايته من محاولات أعدائه للقضاء عليه ، وقد كتب محمد كرد علي في مذكراته (٢ / ٥٢٩) شهادة صريحة بفضل فارس الخوري على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المجمع : « فالمجمع مدين لأعضائه مثل أخي فارس الخوري ، أنشأه معي ، وحماه من تمحّكات السياسيين الأغبياء » .

وهذه الرسائل المتبادلة بين الرجلين الصديقين ، منذ تلك الفترة المبكرة - في مطلع القرن العشرين - تؤكد متانة الروابط التي كانت تجمع بينهما وهما بعد في سن الشباب ، كما تكشف رسائلُ فارس الخوري منذ تلك الفترة المبكرة من حياته عن أديب كبير يمتلك أسلوباً سهلاً مطبوعاً ، هو في حدود تلك الفترة من عصر النهضة العربية غايةً في البيان والروعة ، وأشهد أني تلوت بعض الصفحات من تلك الرسائل أكثر من مرة ، مأخوذاً بجمال أسلوبها ، وأسفتُ أن تستأثر السياسةُ بهذا الكاتب المجيد وتحجب عنا - أو عن جيلي أنا وأمثالي - ملامح عبقريته الأدبية ، فظل فارس الخوري في ضمير جيلنا يُطل علينا بصورة الزعيم السياسي ذي الهامة العظيمة ، الذي أتاحت له مواهبه وثقافته وشخصيته أن يقدم للأمة العربية أجل الخدمات .

غير أن لي بعض الملاحظات على تلك الرسائل :

● ففي رسالة من فارس الخوري إلى كرد علي ، مؤرخة في الثاني عشر من تشرين الثاني ١٩٠٤ (الأوراق : ١ / ٣٠٧ - ٣٢١) جاء في تعليقات المحققة (ص ٣٠٩) أن جدها لم يبعث بها إلى كرد علي ، فبقيت بين أوراقه « بسبب تشطيب موجود عليها ، أو لسبب آخر أجهله ! » ، ويبدو لنا السبب في اعتراض فارس الخوري على تشبيه كرد علي له بذات النّحْيَيْن في رسالة سابقة ، فيردّ فارس الخوري بأن « الأجدر بالكاتب أن يربأ ببلاغته عن التشبيه بالأشياء المنكرة والمكروهة ، إلاّ إذا كان يريد تصغير المُشبَّه ! » (الأوراق : ١ / ٣١٠)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولذات النحيين في كتب اللغة والأمثال حكاية مخجلةٌ ، ومن حق من يُشبِّه بها أن يضيق ويحتج (انظر المثل : أشغلُ من ذات النِّحْيَيْن ، في مجمع الأمثال للميداني : ١ / ٢٥٥) .

والعجيب أن كرد علي لم يكن ليتحرّج من ضرب هذا المثل لمجالسيه ، ففي أواخر الأربعينيات شبّه كرد علي في جلسة من جلسات مجمع اللغة العربية بالقاهرة واحداً من كبار أعضائه بذات النِّحْيَيْن ، فثارت ضجة ، وعوتب كرد علي عتاباً غاضباً وصلت أصداؤه إلى دمشق ، وقال القائلون من أصحابه : إنه مثل من الأمثال يُضرب لمن يُشغل عن الأمور الكبيرة بالصغيرة ، دون الالتفات إلى مافي قصة المثل من وقائع منكرة أو مكروهة ! والحق أن اعتراض فارس الخوري الغاضب على تشبيهه بذات النحيين ، لو أتيح لهذه الرسالة أن تحمله إلى كرد علي ، لأصبح الرجل - دون ريب - يتحرّج من المثل وتشبيه أصحابه بما يؤذي نفوسهم ، وهو لا يريد تصغيرهم ولا التعريض بهم .

● وفي رسالة أخرى كتبها فارس الخوري إلى كرد علي مؤرخة في الثامن من كانون الأول ١٩٠٤ ، ولم يبعث بها إليه فظلت مطوية بين أوراقه (١ / ٣٢٣ - ٣٢٩) نقرأ فيها : « اليوم قرأتُ قصيدة نشرها الضياء في (العجوز اليابانية) التي انتحرت لكيلا تكون حائلاً بين ابنها وخوض غمار الحرب ، فرأيتُها غايةً في حسن الوصف ، وبيتُ قصيدها قوله بلسان اليابانيين :

إن نكن صُفراً فماذا ضرّنا هل يعيب الاصفرارُ الذهبا

إذا وقع لك العدد الأخير من الضياء فاقرأها وتلذّذ بها » .

هذه الفقرة من الرسالة بحاجة إلى تعليق في الحواشي ، ولكن المحققة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم تفعل : فالحرب المذكورة نشبت بين اليابان والروس في شباط ١٩٠٤ بسبب احتلال الروس لمنشوريا ، وانتهت بانتصار اليابان وجلاء الروس عن منشوريا واعترافهم بنفوذ اليابان في كوريا ، وقد رأى العرب في مصر وغير مصر في اندحار الروس أمام اليابان بداية ليقظة الشرق ونهوضه من كبوته الطويلة ، وتحديه للغرب المُدِلّ بسطوته وجبروته ، ولحافظ إبراهيم قصيدة مشهورة يمجّد بطولة اليابانيين وشجاعتهم في القتال ، ومطلعها (ديوانه : ٢ / ٧) :

لاتَلُمْ كفي إذا السيف نبـــا صـحَّ مِنّي العـزمُ والـــدهرُ أبى

وهي من دُرر قصائد حافظ السياسية التي كانت تُثير همة الشباب العربي في كل قطر من بلادهم ، فيحفظون أبياتها الحماسية ، ويُردّدونها باعتزاز بالرابطة الشرقية ، وزهو ببعث الشرق ، وقُدرته على التغلّب على أُمم الغرب ، وفيها يُدوّي صوت (غادة اليابان) :

أنـا يـابـانيـةٌ لا أنثني عن مُرادي أو أذوقَ العَطَبـا
أنـا إن لم أُحْسِنِ الرميَ ولم تستطـع كفّـايَ تقليبَ الظُبـا
أخـدمُ الجرحَى وأقضي حقَّهم وأواسي في الـوغى من نُكِبـا
هكـذا الميكادُ قـد عَلَّمنـا أن نرى الأوطـان أُمّـاً وأبـا

والعجيب أن قصيدة (العجوز اليابانية) هي من بحر قصيدة (غادة اليابان) ورويّها ، وكم كنا نتمنى أن نعرف الشاعر الذي مجّد انتحار العجوز اليابانية في تلك الحرب ، والذي نالت قصيدته إعجاب فارس الخوري الكبير بحسن الوصف فيها ، وليت المحققة رجعت إلى ذلك العدد من جريدة الضياء (أو مجلة الضياء) وأغنت تلك الفقرة من رسالة جدها إلى كرد علي بتعليقات مفيدة عن تلك الحرب وماقيل فيها من شعر عربي حماسي ، فنعرف صاحب القصيدة التي ينصح فارس الخوري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صديقه كرد علي أن يقرأها ويتلذّذ بقراءتها ، ولو تمّ لنا ذلك واهتدينا إلى القصيدة لكانت الموازنة بينها وبين قصيدة حافظ ـ وهما كما قدّمنا من بحر واحد وروي واحد وقيلتا في حرب واحدة ـ شيئاً بالغ الطرافة وعظيم لفائدة .

● وفي رسالة من كرد علي إلى فارس الخوري نشرت المحققة صفحتين منها بخط كرد على (الأوراق : ١ / ٣٣٨) نقرأ فقرات منقولة عن (رسائل الوهراني) وهي بحاجة إلى تعليقات المحققة التي تُلقي فيها أضواءً على النصوص المنقولة ، فمن هو الوهراني هذا وماهي رسائله التي ينقل كرد علي عنها ؟

في الكتاب الصادر عن مجمع اللغة العربية بدمشق بمناسبة مهرجان ذكرى مرور مائة عام على ولادة كرد علي تعريف بالوهراني العالم الجزائري الأصل الذي غادر بلاده إلى مصر ودمشق ليصبح من كتاب الرسائل والإنشاء في عهد صلاح الدين الأيوبي ، وقد أصبح خطيب داريا ـ القرية الدمشقية المشهورة ـ وله كتاب اسمه (مُنْشَآت الوهراني) ظفر بمخطوطته كرد علي في بعض الخزائن ، وأُعجب بمافيه من جد في قالب هزل ، فاهتمّ به وتحدّث عنه في باب (مطبوعات ومخطوطات) من مجلته المقتبس (م ١ ص ٤٠) وهو في رسالته إلى فارس الخوري ينقل بعضاً من فقراته .(انظر مقالة الدكتور شكري فيصل : محمد كرد علي من خلال المقتبس : ص ١٢٤ من كتاب المهرجان)

وفي فقرة منقولة عن الوهراني في رسالة كرد علي نقرأ : « وهو إذا طمعَ فانبسطَ فعنده من الأُنْسِ مالا يتأذّى وليدُه » ونرجع إلى صورة الفقرة المنشورة بخط كرد علي نفسه (ص ٣٣٩) فنرى المحققة قد نقلت بأمانة تامة ماكتب ، ولم تنتبه إلى التصحيف في المنقول عن الوهراني ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتصويبه « مالا يُنادى وليدُه » ، وهو مَثَلٌ يُضرب للكثرة ، وكان القدماء من علماء اللغة والأدب وقفوا عنده ليشرحوه ويفيضوا في تفسيره لغرابته فيما يبدو ، فتعددت تفسيراتهم (انظر مايقوله كل من أبي عُبيدة وابن الأعرابي والفرّاء والجاحظ وابن قتيبة والجرجاني ، ويمكن مراجعة أقوالهم في الحيوان للجاحظ (هارون) : ٢ / ٧١ وأدب الكاتب لابن قتيبة : ٤٦ ـ ٤٧ وشرحه للجواليقي : ١١٩ و كنايات الجرجاني : ١٤٠ ومجمع الأمثال للميداني : ٢ / ٢٣٢ إلخ ..) وانظر أمثلة لاستعمال هذا المثل في المصادر التالية :

١ ـ قول الشاعر :

لقد شَرَعَتْ كفّا يزيدَ بنِ مَزْيَدٍ شَرائعَ جُودٍ لايُنادى وليدُها

(شرح أدب الكاتب : ١١٩)

٢ ـ قول الجاحظ :

« وإذا صِرْتَ إلى البغالِ صِرْتَ إلى سَوَسٍ في الأُنثى لايُنادى وليدُه »

(رسائل الجاحظ (هارون) : ٢ / ٣٢٣)

٣ ـ وقول الجاحظ :

« قولهم : نزلتْ بهم أمورٌ لايُنادى وليدُها »

(الحيوان للجاحظ (هارون) ٢ / ٧١)

٤ ـ قول أحمد بن اسماعيل (أحد كتاب الدواوين في العصر العباسي) :

« ووقعتُ فيما لايُنادى وليدُه »

(الوزراء للصابي : ٢٠٦)

(الهفوات النادرة لغرس النعمة : ٢٠٧)

☆ ☆ ☆

وإذا انتقلنا من فارس الخوري الأديب الكاتب المجيد إلى فارس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخوري الشاعر في هذا الجزء الأول من أوراقه استوقفتنا قصيدته الطويلة في هجاء السلطان عبد الحميد الثاني إثر خلعه عن عرشه في آذار ١٩٠٩ (الأوراق : ١ / ٤٠٣ ومابعدها) وقد ذكرت المحققة أن جدّها « لم يندم في حياته على شيءٍ ندمَه على هجاء عبد الحميد فيها » ونقلت عن كتاب (فارس الخوري وأيام لاتُنسى للسيد محمد الفرحاني ص ٣٠٢) مايؤكد هذا الندم ، لأن جدّها تأكّد له فيما بعد بمالا يقبل الجدل أن « هذا الخليفة الاسلامي قد راح ضحية ثأر اليهودية العالمية » وانتقامها منه لوقوفه في وجه الهجرة اليهودية إلى فلسطين إلخ ..

ونقرأ هجاء فارس الخوري للسلطان المظلوم والمفترى عليه فتطالعنا الصورة الدموية البشعة التي رسمتها ادعاءات اليهودية الماكرة له ، وهي صورة مضلّلة تفنن المكر الصهيوني في رسم ملامحها الشيطانية ، وقد آن للتاريخ أن ينصف الرجل ، واعترافُ فارس الخوري بأنه كان مخدوعاً في هجائه إياه ، وندمه الكبير عليه ، وتأسّفه على عبد الحميد الخليفة الإسلامي الذي لم يبع فلسطين لليهود والصهيونية فتآمروا عليه وأزاحوه من الطريق ليصلوا إلى ماوصلوا إليه من بعده ، كل ذلك يدعو المخدوعين بالتضليل والدعاوة الصهيونية إلى مراجعة موقفهم من السلطان الأحمر والأساطير التي تتناقل عن جوره وغدره وفتكه بالأحرار واغتيالاته لخصومه ، ولن يتم تصحيح الموقف إلا بانتشار الوعي الفكري والسياسي والقومي الذي كان فارس الخوري واحداً من أبرز بُناته وأعلامه في تاريخنا العربي الحديث .

☆ ☆ ☆

في خاتمة هذه الملاحظات والانطباعات التي خرجنا بها من قراءة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا الجزء القيّم من أوراق فارس الخوري نعاود الثناء على جهد المحققة كوليت حفيدة الفارس العظيم ، ولعلها في طبعة قادمة لهذا الجزء يُتاح لها أن تتلافى بعض التطبيعات الواردة فيه ، وهذه أمثلةلها :

١ ـ ص ٣١٠ سطر ١١ : لايَغْرب عنك : لايَعْزُب

٢ ـ ص ٣٦١ البيت ٩ : وإن تشدو ورقاءُ في أيكة : وإن تَشْدُ .

٣ ـ ص ٣٦٥ السطر الأول : حبة السُّبَّحة : السُّبْحَة .

وقد ترددت الكلمة بهذا الشكل في عدة أبيات من القصيدة (الأبيات : ١ و ٣٠ و ٤٢ و ٥٠) وهي بذلك تهشّم وزنها ، وهي من مجزوء الكامل .

٤ ـ ص ٤١٧ البيت الثاني : فلم أر زوراً مُشَبَّها بحقيقة ، والصواب : من غير تشديد (مُشْبَهاً) ليتزن البيت .

وهذه التطبيعات وأمثالها لايخلو منها كتاب مطبوع مهما جوَّدنا تحقيقه ، ومن الانصاف أن ننوّه بفضل المحققة الأدبية الموهوبة ونثني على عملها في نشر أوراق جدها ، وسنظل في لهفة كبيرة إلى صدور الأجزاء الباقية منها ، ورجاؤنا ألا يطول انتظارنا لصدورها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net